الأبعاد الجمالية للأدب بين فلسفة النقد الإسلامي ونظرية الفن للفن

Title : Aesthetic Dimensions of Literature between Islamic Criticism Philosophy and Art for Art Theory

د/ علي كرباع أستاذ محاضر أ .جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

الملخص يسعى هذا المقال للبحث عن البعد الجمالي في النص الأدبي (الشعري) من خلال عرض قضية الضوابط التي قيدت النص (دينية , اجتماعية , عرفية ....) في صورتها التقليدية, أو مايسمى بالنقد الأخلاقي , أو القضية النقدية الأخلاقية , فهذه القضية في الفن لا يقصد بها الوعظ و الإرشاد المباشر ، بل إن للفن أدواته التصويرية الخاصة في نقل الإحساس و تعميمه في النفس الإنسانية و هذا من خلال صوره الفنية وأساليبه النفسية المؤثرة وبين ماجاءت به نظرية الفن للفن وما دعا إليه بودلير إذ يرى بأن موضوع الشعر في الشعر نفسه ، و أن الشعر العظيم الذي يستحق اسم الشعر هو ذلك الذي يكتب بمجرد المتعة في كتابته.

الكلمات المفتاحية : البعد الجمالي , النقد الإسلامي , نظرية الفن للفن , فلسفة النقد

Abstract: This article seeks to search for the aesthetic dimension in the literary text by presenting the issue of the controls that restricted the text (religious, social, customary ...) in its traditional form, the so-called moral criticism or moral moral issue, Art is not intended for preaching and direct guidance, but for the art of its own special tools in the transfer of sensation and generalization in the human soul and this through his artistic images and psychological methods influential and between the theory of art for art and what Baudelaire called the view that the subject of poetry in the same poetry , And that the great poetry that deserves the name of poetry is the one that writes Bam Re pleasure in writing.

Keywords : Aesthetic dimension; Islamic Criticism, Art for Art theory , Criticism Philosophy.

لم يكن الإسلام بعيدا عمّا يدور في السّاحة الأدبيّة من شعر وأدب , إ لا أنّ الاشتغال بدعوة النّاس وإرشادهم لهذا الدِّين, هو ما أخذ منهم الوقت ليدوّنوا ما جادت به قرائحهم ,وقد مضت الأيّام و بدأت معالم الدِّين تتَّضح, و بدأ الصّراع بين المسلمين والمشركين ينتقل من السّرية إلى الجهر, ومن الحجّة بالكلمة الطيّبة إلى

مقارعة السيُّوف والجهاد, دفاعا ونشرا للدَّعوة الإسلاميّة . وفي هذا الوقت بالذَّات تَبَيَّنَ للرُّسول صلى الله عليه و سلم أنَّ النِّضال بقوَّة السَّيف لا يكفي لردِّ المشركين, فقد استعان صلى الله عليه وسلم بحسَّان بن ثابت رضي الله عنه, حيث قال له : " أهْجُهم ورُوح القُدُس معك, واسْتَعِنْ بأبي بكر, فإنَّه علاَّمة قريش بأنساب العرب " [1].

وقَدْ دعا النَّبيِّ صلى الله عليه و سلم حسَّان بن ثابت, وكعبَ بن مالك, وعبد الله بن رواحة, فَحَثَّهم على قَوْل الشّعر, ونُصْرَة الإسلام ، ويقول لأصحابه:" ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أنْ يَنْصُرُوهُ بِأَلْسِنَتِهم "[2].

فالنَّبيُّ صلى الله عليه و سلم يرى في الشِّعر كأنَّه أحد أسلحة الدَّعوة الإسلاميّة,ومدى وَقْعِه في النُّفُوس, وإنَّ العرب في الجاهليَّة والإسلام ليَعْرِفُونَ مَوْقِع الكلمةِ, وإنَّ وَقْعَهَا لأشدّ عليهم مِنْ وَقْع السُّيُوف على الرِّقاب .

وقد قال الفراهيديّ :"إنّ الشِّعر أحبُّ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم من كثير من الكلام "[3] .

فقد جعل له مكانة عظيمة,فكأنَه ـصلى الله عليه و سلم ـ يُعَظِّمُه, ويعطيه المكانة اللاّئِقَة به, فقد عرّفه تعريفا شاملا حيث قال :"الشِّعْر كلام من كلام العرب, جَزْلُ تتكلَّم به في نواديها, وتَسُلُّ به الضَّغَائن بينها "[4]ورُوي عنه ـ صلى الله عليه و سلم ـ تقسيمه للشِّعْر بقوله:" إنَّمَا الشِّعر كلام مؤلّف, فما وافق الحقَّ منه فهو حسنٌ, و ما لم يوافِق الحقَّ منه فلا خير فيه ",وقال أيضا :" إنَّما الشّعر كلام ، فمِن الكلام خبيث وطيّب" [5]

فمِنَ خلال الحديثَيْن السَّابقيْن يمكن القول أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ قد ربط بين الشِّعر الذي يوافق الحقّ وهو الكلام الطَّيِب, والشِّعر الذي لا يوافق الحقّ وهو الكلام الخبيث، ففيه مقاسا للشّعر الحسن؛ فكل شعر خيره في إتباع الحقُّ ,و شرُّه في مخالفته.

و في هذا المقام يتّضح لنا موقفا إسلاميًّا من الشّعر،ونُعَرِّج فيه عن قضيّة فلسفيّة، ألا وهي الفنّ وعلاقته بالأدب "والفنّ من أجل قضية ما ،هو هدف إنساني يسمو على كلّ المواضيع الأخرى .... وتوظيفه في خدمة إنسانية نبيلة ، وفي المقابل فإنّ الأدب والقضيّة قد يعانيان أحيانا من اللّجوء إلى النّفاق، وتحريف الأفكار والحقائق", وقد أثنى النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم عن الشِّعر خاصَّة في قوله: إنَّ مِن الشِّعر لحكمة,وإنَّ من البيان لسحرا.

"فنلاحظ أنّ موقفه صلى الله عليه و سلّم ـ مع موقف القرآن الكريم،وقد كان يَتَذَوَّقُ الشِّعْرَ, ويرتاح لسماع الحِكَم فيه, لذلك وجدناه يسمحُ للشُّعراء بإنشادهم الشِّعر له"[6]

فالأدب الإسلاميّ أضفى على الشّعر صبغة ميدانيّة ،"والملفت للنّظر أنّه وصف المضمون بالحكمة، الصّادرة عن تجربة إنسانيّة بانيّة للكيان الإنسانيّ والاجتماعيّ،وليس المضمون العبثي، كما وصف الجانب الفنّي بالسحر، وهو وصف يحمل طبيعة العمل الفني ، وإن كان لتقديم الأدب (الحكمة) له دلالة واضحة في التّصوير الإسلاميّ للحياة والأدب"[7]

و من المواقف التي تؤكِّد أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يسمع الشِّعر؛ما أنشده كعب بن زهير حين قال :"

أنْبِئْتُ أنَّ رسول الله أَوْعَدَني * و العفو عند رسول الله مأمولُ**

فطلب منه الرَّسول صلى الله عليه و سلم أن يَذْكُر الأنصار فقال :

من سرّه كرم الحياة فلم يَزَلْ * في مَقْنِت من صالحي الأنصار[8].**

و في هذه النقطة تجدر الإشارة إلى أن الدّين لم يكن عدوا للأدب (الفن) كما يظن البعض ،"فالهروب من النفعية وعدم ارتباط الأدب بأي شيء خارجي (الدين ، العلم،المجتمع)، يؤدي إلى عودة الفن إلى برجه العاجِي ، و يجعله يتبنّى الجمالية المحضة, وبهذا يصبح الفن حرا، ووفقا لهذا الموقف " . [9]

فهـذا النِّداء الذي أتت به نظرية الخلق التي سعت إلى تحقيق قضيّة الفنّ للفن، وليس من العيب أن يقول الشّاعر ما في جوفه دون الاهتمام بالجانب السّياقي ، يقول القاضي الجرجاني في الوساطة و هو يتناول قضية فساد العقيدة في الشّعر :"فلو كانت الدّيانة عارا على الشعر، وكان شعر الإعتقاء سببا لتأخُّر الشّاعر لوجب أن يُمحى اسم أبي نواس من الدّواوين، ويحذف ذكره إذا عُدَّت الطَّبقات ،ولكان أولاهم بذلك أهل الجاهليَّة ومن تشهد الأمَّة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير ، وابن الزَّبعري وأظرابهما ممن تناول الرّسول الله صلـى اللـه عليـه وسلم وعاب من أصحابه بكما خرسا و بكاء مفْحمين، ولكن الأمرين متباينان, والدّين، بمعزل عن الشعر") [10].

فالنّبيّ صلى الله عليه و سلم عند سماعه اعتذار كعب بن زهير، وهو ينشده قصيدته المشهورة ، بانت سعاد ، في حضرته ولم ينكر عنه، بل أبقى للأدب أدبيته ."وعلى هذا النحو يبدو أن مذهب الفنّ لا علاقة له بالمسألة الأخلاقيّة وارتباطها

بالأدب، فالقول بأن الفنّ غايته في ذاته لا محل للحكم عليه أخلاقيا . و من هنا يتضح أن مذهب الفن للفن لا يعارض الأخلاق ، إنما يسعى إلى خلق الجمال في ذاته، وتحرير الفنون من اتخاذها وسيلة للتعبير عن شخصية صاحبها "[11].

فالإسلام لم يمنع الأدب أدبيته ، وجعل من القول بما يخالف مبادئ الدّين في الشّعر, وإنّما هو بين القول والمعتقد ،" وأنَّ العرب لم تعتنق مبدأ الالتزام بالعقيدة الدّينيّة ، ومبادئ الأخلاق الإسلاميّة في أشعارها،وإنّما عرفوا في حياتهم مبدأ الفصل بين القول والفعل بدليل سماعه لقصيدة حسّان الذي يقول فيها :

و نَشْرَبُهَا فَتَتْرُكُنَا مُلُوكًا وأُسْدا ما يُنْهنُهنا اللّقاء

فسكت عنها لأنه كان مدركا أنّ ذلك تقيّد فني ليس غير [12].

فالنّبي – صلى الله عليه و سلم – قد سمع كثيرا من أشعار العرب ، و التي والتي قيلت بحضرته ،"فقد أعطى لشعر أهمية بالغة، باعتباره فنا معرفيا قادرا على تشكيل العقول من خلال قيمته المعرفيّة والفنية الموحيّة "[13]

فنظريّة (الفن للفن) أو الشّعر للشّعر هي الغايّة منه ،" يرى بودلير بأنّ موضوع الشّعر في الشّعر نفسه، وأنّ الشّعر العظيم الذي يستحق اسم الشّعر هو ذلك الذي يكتب بمجرد المتعة في كتابته" [14]

فالإسلام حقيقة أراد أن يجعل من الشِّعر شعرا ناضجا، كما هو مهتم بالجانب الذّاتي للشّاعر، فيكون ذا صلة بما يحيط به، لتقوم هذه الفكرة الفن الأدبي على أساس خصوصيات الفن، للتّعبير عن الوضوح والجمال .

فالنَّبيِّ – صلى الله عليه و سلم – قد أعطى للفن فنيته ، والأدب أدبيته بصورة منظمة شريطة أن يكون الفن في موضعه ، قال أحمد أمين :" إذا كان في الإمكان وجود فنّ يخدم المجتمع بأنه الأرقى،ولكن هذا لا يتهيأ إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان"[15].

و كذلك ما رواه السّكري "أنَّ النَّبيَّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ لمَا سمع قول كعب بن زهير:

وجْناء في جرّتَيْها للبصير بها * عتق مُبِين و في الخدّيْن تسهيل**

قال لأصحابه ما جرّتاها ؟ فقال بعضهم العيْنان ، وسكت بعضهم، فقال لهم :هما أُذُناها نسبهما إلى الكرم ." [16],بل كان النَّبيّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ يسمع الشِّعر ويكافئُ عنه,وذلك عندما أنشده النّابغة الجعديّ :

أَتَيْتُ رسول الله إذ جاء بالهدى * و يتلو كتابا كالمجَرَّة نيّرَا**

بلغنا السَّماء مجدنا و جدودنا * و إنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا**

فقال له النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم :"إلى أين يا أبا ليلى ؟ , فقال : إلى الجنَّة يا رسول الله,

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: إن شاء الله" (17)

و بعد هذيْن البَيْتَيْنِ نجد الرَّسول ـ صلى الله عليه و سلم ـ يَحْكُم على الشِّعر,وهذا بعد إنشاد بَيْتَيْن أنشدَهما النَّابِغة :

و لاخير في حلم إذا لم تكن له * بوادرٌ تحمي صَفْوَهُ أنْ يكدّرا**

و لا خير في جهل إذا لم يكن له * حِلم إذا ما أوْرَدَ الأمر أصْدَرَا**

فقال النّبيُّ صلى الله عليه و سلم : لا فَضَّ الله فاك. (18)

و النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ كان يَتَمَثَّل بقول طرفة بن العبد إذ يقول :

ستبدي لك الأيَّام ما كنت جاهلا * و يأتيك من الأخبار ما لم تُزَوِّدِ**

و كان إذا أراد الإستشهاد بالشِّعر في موقف ما؛ يطلب مِمَن يَحْضُرُه أن يروي الشّعر الذي يريد, دون أنْ يجريه على لسانه (19)

و إذا اسْتَحْسَنَ شِعْرا أو أُعْجِبَ به قولا وجمالا عقّب بحكم، كما جعل ذلك في شعر أميَّة بن الصَّلت :

الحمد لله ممسانا و مصبحنا * بالخير صبّحنا الله و مسّانا**

ربُّ الحنيفة لم تنفذ خَزائنها * مَمْلوءةً طبّق الآفاق سلطانا**

ألا نَبِيٌّ لنـا منـَّا فيُخْبِرُنَا * ما بعد غايتنا من رأس محيانا**

فقال الرَّسول ـصلى الله عليه و سلم ـ :ً آمن شِعْرُه و كفر قلبُه (20)

و لم تقتصر سنَّة النَّبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند سماع الشِعر واستحسانه فقط,بل تجاوزت إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه، فيُرى النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ يُصْلِحُ قول كعب بن زهير :

إنَّ الرَّسول لنور يُستضاء به *** مُهَنَّد من سيوف الهند مسلول

فيجعله مُهَنَّد من سيوف الله(21)

فإشادة النَّبيُّ ـ صلى الله عليه و سلم ـ بالشِّعر والسَّماع لحِكَمِه, والإستشهاد بما يوافق الحقَّ, جعلت مكانة الشِّعْر عالية ولِتَرْسِيخِ مبادئ الدِّين فيه .

و كما صحّح كذلك بيت كعب بن مالك :

".....* مقاتلنا عن جذمنا كل فخمة.**

فيجعلها: مقاتلنا عن ديننا(22)

فلقد كان الرَّسُول صلى الله عليه و سلم يسعى لتوجيه الشِّعر الوِجْهَةَ الصّحِيحَة المُلْتَزِمَة, التي لا تُخَالِف الحقَّ والصَّواب, ولا تدع إلى رذيلة أو كفر.

و على هذا الأساس فالإسلام قد رسم لهم منهجا جديدا للشّعر، يُنْظَر إليه في ضَوْءِ الهديِّ الإسلاميّ, فكلُّ شعر فيه حكمة, أو هدف تربوي أو ذكر للتُّراث أو الدِّفاع عن الدَّعوة أو الحثِّ عن الفضائل والعزَّة و الكرامة لنجد الإسلام قد حَرِص عليه كلَّ الحرص, ودعا له.

ففي هذا الموقف الأوَّل نرى أنّ النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم لم يكن يقول الشّعر, بل كان يسمعه و يحكم عليه, و يُصوّب خطأه ,ويُصَحِّحُ ما يجبُ تَصْحيحه, ويُغَيِّرُ صورته إلى الأفضل،فكان عليه الصَّلاة والسَّلام يستشهد بأقوال بعضهم, ويرى الفضل للأفضل منهم، كما رُوي عنه أنّه أحبَّ رؤية عنترة العبسيّ؛ لإعجابه بشعره, و لما رأى فيه من الحكمة والانسجام بين أفكار العِزَّة و الإبَاء .

و أعظم من ذلك , المَوْقف الذي عبَّر به صلى الله عليه و سلم عن إعجابه بالشِّعر, وبروائعه, وكيف يجري في هذه الأمة إلى حدِّ قوله :" لا تدع العرب الشّعر حتى تدع الإبل الحنين[23]وإنَّه لمن عظيم الشّرف أن يَعْتَرِف النَّبيُّ -صلى الله عليه و سلم -ببقاء هذا الجنس الأدبيّ وهو الشِّعر"فمذهب الفنّ للفنّ لايتعارض مع الأخلاق, وإنّما يسعى إلى خلق الجمال في ذاته,وتحريرا للفنون من اتّخاذها وسيلة للتّعبير عن شخصيّة صاحبها ,فهو لا يناهضها[24]

وهناك موقف آخر للرّسول صلى الله عليه و سلم من الشّعر، وقد ذَكَرَتْه كتب النَّقد معتبرين ذلك حكما عليه, كما قال تعالى:{**والشُّعَرِاءُ يَتَّبِعُهُم الغَاوُون**}(الشعراء 224)

و قد نزّه الله نبيه عن قول الشعر فقال{ **و ما علّمناه الشّعر و ما ينبغي له**}(يس 69). وقوله تعالى :{ **أَمْ يقُولُونَ شَاعِر نَتَرَبَّصُ به رَيْبِ المَنُونِ** }(الطور 30).

روى ابن كثير عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم قال قائل منهم: احتبسوه في وثاق وتربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم, فأنزل الله تعالى ذلك من قولهم {أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ؟}.[25]

ففي هذه الآيات من القرآن الكريم يَتَبَيَّنُ لنا :

- أنَّ الرّسول صلى الله عليه و سلم لا يليق به قول الشّعر، وأنَّه ليس في حاجة له .
- اتَّهمَ المشركون النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم بقَوْل الشِّعر, وهذا لمعرفتهم بمكانته بين نواديهم – أي الشّعر – و ما رأوا فيه من السّحر و البيان .
- أثبتت الآية { **و الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعْهُمُ الغَاوُون** } وهذا سبيل الغيِّ والضَّلال, وإلا فالقرآن الكريم سبيل الخير و الهُدى [26]فلم يكن هذا الحكم حكما مُطْلَقًا, بل كان حكما مُتَعلِّقًا بأغراض الشِّعر التي عارضت الدَّعوة الإسلاميّة و قامت ضدَّها .

فالإسلام لم يُحَرِّمْ نظم الشِّعر – من خلال الآيات السابقة – ," كما يزعم البعض, ولم يهاجم الشُّعراء عامة، وإنَّما يقصد أولئك المشركين الذين يهاجمون رسول الله صلى الله عليه وسلم, وينهشون في أعراض النَّاس [27]

و ثَّمَّة أحاديث أخرى في ذم الشّعر,قوله صلى الله عليه و سلم :"لأن يمتلئ جوف الرَّجل قيْحا خير له من أن يمتلئ شعرا[28]ففي هذا الحديث نرى الاستنقاص من الشَّعر ومكانته, بل والدَّعوة إلى تركه, لكنّ هذا الحكم ليس عامًّا, فهو متعلِّق بالشُّعراء المشركين الذين آذوا النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم والدَّعوة الإسلاميّة, وإلا فالأحكام السَّابقة – التي تمَّ ذكرها – تُجَسِّدُ موقف الرَّسول صلى الله عليه و سلم من الشِّعر المعتدل, الذي يدعو إلى الفضيلة. وفي هذا الحديث غاية أخرى يجسِّدها حثُّ المسلمين للتَّمسُك بالقرآن,والأحاديث, وترك ما يشغلهم عنهما.وهناك مَن، تتبّع طرق أصل الحديث فتوصّل إلى معناه, كما أشار إلى ذلك مصطفى إبراهيم:" قول عائشة رضي الله عنها: يرحم الله أبا هريرة حفظ أوَّل الحديث ولم يحفظ آخره, إنَّ المشركين كانوا يهاجمون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:ً لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلئ شعرا من مهاجاة رسول اللهً [29]

فقد ربط الرَّسول عليه الصَّلاة و السَّلام تحريم الشِّعر وتَجَنُّبه لمن غلب على قلبه قوله, أو كان فيه أذى للإسلام، ولهذا نجده يُكَرِّه كلَّ شعر يدعو إلى العصبيَّة. فعندما سمع قول الرَّجل ينشد :

إنِّي امرؤ حُمَيْرِيٌّ حين تَنْسُبُنِي *** لا من ربيعة أبائي و لا مُضَر

فقال له : ذلك ألأم لك, وأبعد, من الله و رسوله [30].

فهذه الصُّورة الجاهليَّة التي دعا الإسلام إلى تركها ,وعدم التّعصب للأصل, وأن الأفضلية في الخلق ليست بالنَّسب وإنَّما بالتَّقوى, كما أخبر بذلك رب البرية في القرآن.

و هنا يتّضح لنا موقفا آخر للإسلام من الشّعر ، ففي أول الأمر كانت النّظرة مختلفة، فبدأت التّربيّة الإسلاميّة تُوجِّه الشّعر نحو الأفضل وربطه بمبادئ الدِّين ،"ليس الالتزام في الأدب الإسلاميّ، نقيضا للحريّة أبدا لأنّ الحريّة الحقيقيّة هي ألا تعبد أحدا إلا الله "[31].

فهنا جاء الرّبط بين الأخلاق والدّين بمنظور يوافق الفطرة، فيرى أفلاطون أنّ للشّعر رسالة سامية، إن لم يحقِّقها فهو شعر فاسد ، لأنه أوهام لا تجد لها ظلال في عالم الحقيقة والشعر ينبغي أن يحثّ على فعل الخير، وأن يصور النّاس تصويرا ملائما من شأنه أن يؤخذ على سبيل الاحتذاء . [32]

فالتّوجيه الإسلاميّ للشّعر ، هو الذي جعل منه فنّا مصونا بعيدا عن الرّذائل, والأمر لا يتعارض مع الدّيانة الإسلاميّة الملتزمة بهذه الأخلاق، فقد عرف الكثير من الشّعراء الذين صانوا أشعارهم على النقائص، وناصروا الفضيلة ،"فالنَّبيِّ صلى الله عليه و سلم، قد وظَّف المعيار الأخلاقيّ في نقده مرتبطا ببعض العبارات الذَوقيَّة التي تخضع للانطباع الشّخصي [33]

فالفكرة الإسلاميّة والتي سعت جاهدة لتوظيف الأدب توظيفا حسب معتقدها، وهنا نرى تأثير الإسلام فيه، توجيها ودعوة وإرشادا ، والأخذ بيده إلى ما يوافقه، فالدّين والأخلاق يُنزعان من قوس واحدة ، ويرميان إلى غاية واحدة،فإن هذا الربط الوثيق بينهما كربط بين الشخص وظلّه للتَّداخل بينهما، لأن الدِّين هو الرّوح بالنسبة للجسد، وما هذه الانفعالات إلا حالة طارئة"فالقضية الأخلاقيّة في الفنّ لا يُقصد بها الوعظ والإرشاد المباشر، بل للفنّ أدواته التّصويريّة الخاصّة في نقل الإحساس الأخلاقيّ وتعميمه في النّفس الإنسانيّة ,ولعله بسبب من هذا كان كتاب الإسلام الأكبر يُعمق هذا الإحساس من خلال صوره الفَنِيَّة وأساليبه النَّفسية المؤثرة [34]

فهنا قد سعى الإسلام أن يُرجع للأدب مكانته اللائقة به،وموافقته للفطرة الإسلاميّة لأن الأخلاق والدِّين هما (الذات و الروح), لأننا لا يمكن أن نتصور الدّين السماوي بأخلاقه العالية موافقا لشعر يخالفه.و قد رُوي عنه صلى الله عليه وسلم

استهْجانه لبعض الأغراض, والتي فيها مساس بالمشاعر والأحاسيس, ولما تحمله من هوان و ذِلَّة فقد قال :" من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر[35]

فالذَّم المفهوم من قوله صلى الله عليه و سلم هو ذاك الكلام الذي يُلْحِق الأذيَّة بالمسلمين وبالإسلام ، وينهش في أعراضهم و يستصغر حالهم .

و مجمل القول أن النّهي الوارد في أقواله صلى الله عليه و سلم:" مُنْصَرِفُ إلى أولئك الشُّعراء الذين اتَّخذوا الشِّعر لعبا ولهوا ينالون به الأعراض,و يُشعلون به نيران الفتنة والعداوة والبغضاء بين النَّاس, ويستَنْزِفُون به أموالهم بالثناء و الكذب [36]

وقد قال صلى الله عليه و سلم في شأن امرؤ القيس :" ذلك رجل مذكور في الدُّنيا شريف فيها، مَنْسِيٌّ في الآخرة خاملٌ فيها, يجيء يوم القيامة معه لواء الشُّعراء إلى جهنم [37]

فهذيْن الموقفيْن من الإسلام ومن النبي صلى الله عليه و سلم يمكن أن نقول فيهما:

أولا: أن الرّسول صلى الله عليه و سلم اتُّهِم بالشِّعر لفصاحته وإعجازه, فردَّ القرآن عليهم ذلك و برَّأه ممّا قالوا، فهو لم يقل شعرا قط بل استحسنه, و سمعه و صوَّبه, وصحَّح المُعْوجَّ فيما سمع منه .

ثانيا:استغلاله سلاحا للدِّفاع عن الدّعوة :" أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم بعدما تمكَّن القرآن من السَّيْطرة, ووضحت رسالته, و تبيَّن الفرق بين القرآن والشِّعر كان له موقف آخر إذ حثَّ الشُّعراء على الدِّفـاع عن الإسلام [38]

ولا يُفهم من هذا أنّ هناك خلط بين القرآن والشّعر لدى العرب ,لأنّهم كانوا أعلم بهذا,لكن حتى لا يَشْغُل بالهم. فبعدما كان الشِّعر مذموما وقد مُنِع القول فيه،(لاستغلاله في مخالفة الإسلام),اسْتُغِلَّ كأحد أسلحة الدّعوة الإسلاميّة دفاعا و نشرا .

و قد صوّر شوقي ضيف حياة الشّعر في العصر الإسلامي :" و من الظُّلم للإسلام أن يُقال إنَّـه كفَّ العرب عن الشِّعر ووقَّفَ نشاطـهم، فقد كان يُنْشَدُ على كلِّ لسان، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله, سواء في معركة الإسلام مع الوثنِيِّين أو في الفتوح ...و لعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنَّ الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإنَّ أحداثه حلَّت عقد الألسنة, وأنطقت بالشِّعر كثيرين لم يكونوا ينطقوه [39]

و نجد ابن رشيق القيروانيّ قد جعل أحد عناوينه،"باب في الرّدّ على من يُكرّه الشعر[40]

و قد أورد في هذا الباب عدّة أحاديث و قصص وروايات عن النَّبيّ صلى الله عليه و سلم,وعن خلفائه وأصحابه, وقولهم الشّعر في حضرته صلى الله عليه وسلم, ومن ذلك ما راوه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها كثيرة الرّواية للشّعر,ويقال أنّها كانت تروي جميع شعر لبيد .

فالإسلام كتابا وسنَّة يرى في الشّعر النّظرة الوسطيّة, وعرف العرب بعد الإسلام وزن الكلمة, "واضطرَّ كثير ممن هجاهم حسّان إلى الاستجارة برسول الله صلى الله عليه وسلم, فرارا من شعره, فلما هجا الحارث بن عوف المُرّي و هو مشرك بقوله :

وأمانة المُرّي حيث لقيتُه * مثل الزُّجاجة صَدْعها لا يجبر**

قال الحارث للنَّبيِّ صلى الله عليه و سلم :"يا محمد أجِرْني من شعر حسَّان, فو الله لو مُزِج به البحر لمزجه [41]

و معلوم أنَّ حسّان قد أذن له الرَّسول صلى الله عليه و سلم بقول الشّعر ًأهج قريشا و معك روح القدس .ً

فهاتيْن النَّظرتين للشِّعر بين الاستحسان والاستهجان تُظْهِر لنا أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم قد نظر إليه من زاويتيْن:

النّظرة الأولى : أنّه يَعْتَبِر الشِّعر خطرا على الدَّعوة أثناء معركته مع المشركين ... وهو موقف نابع من غاية الشّعر التي قد تؤدي إلى الضَّرر بالدّعوة الإسلاميّة و حركتها, رغم أنّ بعض الشُّعراء هجوا الرَّسول صلى الله عليه و سلم و صحابته .

النظرة الثانيـة : يُفْهم منها إعجاب الرَّسول صلى الله بالشِعر وحثّـه على سماعه .

و يظهر ذلك من خلال مواقف كثيرة فقد كان يكافئ المُحسن من الشُّعراء و يعفو عن المُسيء منهم, و هو الذي استنشد الخنساء, وحثّ حسان على نظم الشَّعر[42]

و خلاصة القول في هذا الباب أنَّ الرَّسول صلى الله عليه و سلم قد وجَّه الشِّعر توجيها صحيحا فقد "دفع به للاغتراف من بحر العقيدة, والنَّهل من ينبوعها الثَّريِّ ، وكل ما اتفق معها فهو الحقُّ، وكلّ ما جافاها أو اعتدَّ بقيم تتنكَّب لها مرفوض مُسْتَهْجَنْ, يحتاج إلى توجيه وتصويب [43]

فالإسلام على لسان الرّسول صلى الله عليه وسلم قد قوّم الشّعر, فَسَلَب منه النّخوة ، الجاهليّة و العصبيّة العمياء, والدَّعوة إلى الظُّلم والتَّحريض والصَّدِّ عن

الإسلام, وهجاء الرَّسول صلى الله عليه و سلم ، فنقَّاه وطَهَّره, وجعله طريقا للدّفاع عن الإسلام, فالكلمة لها وقعها على النُّفوس, فعندما اقتضت الحاجة إلى عدم الاشتغال بالشّعر وهذا لاشتغال الناس – والشّعراء خاصّة – بالدّعوة الإسلاميّة ,تُرِك الشِّعر, وعندما جاء المشركون وجعلوا منه سلاحا للطَّعن في الإسلام ، حذَّر النَّبيُّ صلى الله عليه و سلم من هذا النَّوع, وفي نفس الوقت حثّ الشُّعراء للرَّد على هؤلاء القوم ."لقد أدرك الرَّسول صلى الله عليه وسلم القيمة الحقيقيَّة للشِّعر,حيث كونه مؤثِرا في المجتمع,ومن حيث وسيلة فعّالة للدّفاع عن الدّين,وذلك يستتبعه بالضّرورة لون من التّذوّق النّقدي بالرّفض أوالقبول,بل إنّ الأمر يتجاوز ذلك محاولة تحديد مفهوم للشّعر من حيث الصّياغة والتّركيب, وطبيعة اللّغة التي يستخدمها,ومن حيث المقام الذي يصلح له ,والمجال الذي يستدعيه[44].

فهي نظرة تربوية تدعو إلى القيم والأخلاق, وهذين الموقفين هما في قوله صلى الله عليه و سلم "إنّما الشّعر كلام مُؤَلَّف فما وافق الحق منه فهو حسنٌ، و ما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه ." و قال : إنَّما الشِّعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب [45]

و هذا الكلام – والله أعلم – فيه ردٌّ جازم على من زعم أنَّ الإسلام قد استنقص الشّعر وحطَّ من قيمته, بدعوى طغيانه عن القرآن, فهذا زعم لا أساس له من الصِّحة, لأنَّ القرآن هو من تحدى الشُّعراء – لمعرفتهم باللُّغة و الفصاحة,و تعظيم النِّاس لهم, ولمكانتهم بين أقوامهم – طلب منهم أن يأتوا بمثل هذا الكلام ولو بسورة واحدة, بل ولو بآية من آياته في فصاحتها ودقَّتها وحسْنِ تركيبها, فالإسلام قد أنصف الشّعر,فقال للمُحسن أحسنت, وللمسيء أسأت, فما كان فيه خير قُبِل, وما كان فيه شرّ رُفِض .

و ربَّما جاءت شبهة "إصغار العرب للشِّعر في صدر الإسلام وإعراضهم عنه من مهاجمة القرآن للشّعراء .... القرآن إنّما يهاجم شعراء المشركين ... لم يهاجم الشّعر من حيث هو شعر، و إنَّما هاجم شعرا بعينه كان يؤذي الله و رسوله"[46].

فالإسلام لم يظلم الشّعر و لم يجحد له فضلا ولاحقّا, وأولاه كل الحقِّ وجعله طريقا ومنهجا، بل نرى الشُّعراء يأخذون من المبادئ الإسلاميّة وهم يجَسِّدونها ويظهرونها للنّاس, تربية وأدبا, و قد استعمله الإسلام لنشر دعوته ,لما عرف من مكانته في القلوب وتعظيمه في النُّفوس, بل جعله المثل الأعلى لأدبهم ,و لهذا

نجدهم قد اتَّهَمُوا النَّبيَّ صلى الله عليه و سلم بأنَّه شاعر؛ لما يروه من السِّحر و البيان . فالإسلام كان بين من غلا جفا في هذا الجانب,فكلُّ شعر فيه خير قَبِلَه, وكلّ شعر فيه شرّ نبذه و تركه"فالمتتبّع لمواقف الرّسول الكريم في مدح الشّعر وذمّه يلمس لأول وهلة أنّه أمام معيار أخلاقيّ جديد نُظر إلى الشِّعر من خلاله...غير أنّ الذي يمعن النظر في مواقفه صلى الله عليه وسلم يدرك أنها لا تهدف إلى تكوين معيار نقدي أخلاقيّ محدد يُحكم على الشعر من خلاله بالجودة أو الرداءة أو بتقدّم شاعر أو تأخيره,أو إبراز قيم أدبية ,وإنّما كانت تهدف أساسا إلى توجيه الشّعر والشّعراء توجيها إسلاميا أخلاقيا يتفق مع سنن الدّعوة الإسلاميّة ويلاءم الفطرة السّليمة ولا يؤذيها"[47]

الهوامش والإحالات:

1- أبو زيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية و الإسلام ، تحقيق على محمد البجاوي، دار النهضة مصر للطباعة و النشر ، (د ط) ، 1981 ، ص 35 .

2- محمد كريم الكواز ، البلاغة و النقد ، المصطلح و النشأة و التجديد مؤسسة الإنتشار العربي، لبنان، ط1 ، 2006 ، ص 143 .

3- سامي مكي العاني ، الإسلام و الشعر ، سلسلة عالم المعرفة رقم 66 ، ص 44 .

4- القرشي ,جمهرة أشعار العرب ، ص 34 .

5- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل سوريا ، ط5 ،1981 .ج1 , ص 27.

6- واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،لبنان،ط1 , 1994 ، ص:80.

7- شلتاغ عبود ، الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، دار المعرفة ، ط1, 1996 ، ص : 174 .

8- القرشي، جمهرة أشعار العرب ، ص:32

9- شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب ، دار المنتخب العربي ، ط1 ،1993، ص :66

10- القاضي الجرجاني ، الوساطة بين أبي تمام و خصوصه – صححه و شرحه أحمد عارف الزين,مطبعة العرفان ، (دط) 1331 هـ ، ص : 58

11- محمد مندور ، في الأدب و النقد ، نهضة مصر للطباعة و النشر والتوزيع الفجالة ، مصر، (د ط) (د ت)، ص31

12- ينظر نجوى صابر، النقد الأخلاقي أصوله و تطبيقاته ، دار العلوم العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ,1990 ، ص 200.

13- ينظر محمد بن مريسي الحارثي ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي حتى القرن السابع الهجري,(دط)،1989, ص35 .

14- عزيز شكري الماضي ، في نظرية الأدب ، ص 69.
15- بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، دار المريخ للنشر ، الرياض ،(د ط)، 1984 ، ص 32 .
16- سامي العاني، الإسلام والشعر، ص42.
17- مصطفى عبد الرحمان إبراهيم ، في النقد الأدبي القديم عند العرب ، دار مكة ، للطباعة (د ط) 1998 ، ص 42
18- ينظر القرشي,جمهرة أشعار العرب ، ص 38
19- ينظر عمر عروة ، دروس في النقد الأدبي القديم ، أشكاله وصوره ومناهجه ، ديوان المطبوعات الجامعية, 2010, ص 50
20- ختير عبد ربي ، النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، دار الغرب للنشر و التوزيع، (د ط) (د ت) ، ص 52
21- ينظر عمر عروة , دروس في النقد الأدبي القديم ، ص 53 .
22- ختير عبد ربي,النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، ص 53
23- محمد كريم الكواز, البلاغة والنقد ، ص 147.
24- ينظر محمد مندور, في الأدب والنقد ، ص35.
25- أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، تفسير القرآن العظيم ، دار المعرفة ، بيروت لبنان، (د ط) 1986,ج4ص 243.
26- ينظر ختير عبد ربي, النقد الأدبي في العصر الإسلامي و الأموي ، ص 34
27- واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، لبنان ، ط1 ،1994, ص 77
28- ينظر مصطفى عبد الرحمن إبراهيم, في النقد الأدبي القديم عند العرب ، ص 64
29- المرجع نفسه ، ص 64
30- ينظر المرجع نفسه ، ص 72
31- شلتاغ عبود ، الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، ص 71
32- ينظر بدوي طبانه ، قضايا النقد الأدبي ، ص 63
33- محمد بن مريسي الحارثي ، الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي ، ص63
34- شلتاغ عبود ، الملامح العامة النظرية الأدب الإسلامي ، ص : 47
35- واضح الصمد ، أدب صدر الإسلام ، ص 76.
36- محمد كريم الكواز ، البلاغة والنقد ص 146
37- عمر عروة ، دروس في النقد الأدبي القديم ص49
38- ينظر ختير عبد ربي ، النقد الأدبي في العصر الإسلامي والأموي ، ص 43
39- شوقي ضيف، العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط24، 2003 .ص 46

40- ينظر ابن رشيق ، العمدة ، ج 1 ص 27
41- سامي العاني ,الإسلام و الشعر، ص 55
42- ينظر عمر عروة، دروس في النقد الأدبي ، ص 49
43- مصطفى عبد الرحمن إبراهيم, في النقد الأدبي القديم عند العرب, ص 73
44- محمد عبد المطلب جدلية الإفراد والتركيب في النقد العربي القديم،الشركة المصرية العالمية للنشر,لونجمان ,ط1 1995,ص27
45- ينظر ابن رشيق، العمدة ، ج 01 ، ص 27
46- ينظر شوقي ضيف, العصر الإسلامي ، ص 44
47- محمد بن مريسي الحارثي,الاتجاه الأخلاقي في النقد ، ص 61